كتب

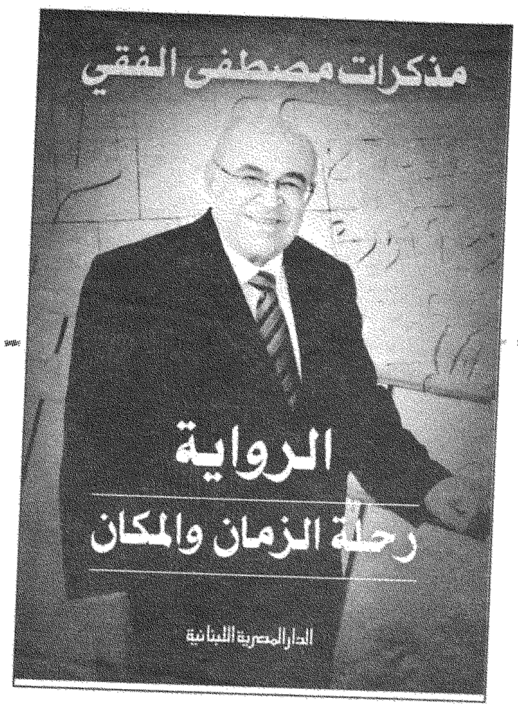

مذكرات مصطفى الفقى:

ليتنا كنا هنودًا

عاطف محمد عبد المجيد

يستهل الكاتب والدبلوماسى د. مصطفى الفقى كتابه "الرواية.. رحلة الزمان والمكان" الذى صدرت منه حتى الآن طبعتان عن الدار المصرية اللبنانية، بمقولة لفرانس كافكا يقول فيها: خجلت من نفسى عندما أدركت أن الحياة حفلة تنكرية، وأنا حضرتها بوجهى الحقيقى.

مذكرات مصطفى الفقى هذه التى يكتبها فى ثمانية عشر فصلًا تسبقها مقدمة وتتلوها خاتمة، يكتب فيها عن تأملاته ودروس الحياة، ممهدًا لها إنه ظلت تراوده منذ سنوات بعيدة رغبة تنبع من إحساس شديد بضرورة نشر الحقائق التى يعرفها والوقائع التى شهدها والأحداث التى عاش وسطها.

الفقى الذى يرى أن الإنسان ابن ظروفه، وهو نتاج تجاربه التى يجب أن ينقلها إلى الأجيال الجديدة، وأن يضعها أمام من يريد أن يعرفها، يؤكد أنه مؤمن بأنه ليس هناك من يحتكر الحقيقة، أو يدّعى وحده الصواب.

ما يراه الفقى هنا أن الواقعة الواحدة تختلف فيها وجهات النظر وفقًا لأطرافها، والحدث الواحد لا يتفق عليه معاصروه وفقًا لاختلاف ثقافاتهم وانتماءاتهم، ولهذا رأى الفقى أن يكون هنا شاهدًا أمينًا، لا يدّعى البطولة ولا يتوهم أنه حالة خاصة، بل يدرك جيدًا أن الإنسان هو الإنسان فى كل مكان وزمان.

الندم الإيجابى

الفقى الذى يؤمن بأن الندم الإيجابى أفضل من الندم السلبي، أى أن تندم على شيء فعلته خير من أن تندم على شيء لم تفعله، أو فرصة أفلتت منك، فالفرص الضائعة تدعو إلى الأسى، أما الأخطاء التى وقعت فهى تجارب تفسر الحاضر وتضيء المستقبل، حين ينظر خلفه إلى ما يزيد عن ثلاثة أرباع قرن منذ أن ولد، يرى أن لكل مرحلة مذاقها ولكل تجربة قيمتها.

هنا أيضًا وحين يظن الفقى أن حياته توزعت وتشتت بين مجالات شتى: العمل الدبلوماسي، النشاط الأكاديمي، الاهتمام السياسي، الظهور الإعلامي، والإسهام البرلماني، يعود ليتمسح فى ظلال الشخصيات الموسوعية فى تاريخ الفلسفة ليرى مَن كان طبيبًا وفنانًا وأديبًا وشاعرًا فى الوقت ذاته.

الفقى الذى يعتقد أن ميزان التاريخ عادل على المدى الطويل، ينصف الناس وينتصر للحق ويبحث عن الحقيقة، يقول إنه من المستحيل رصد كل التفاصيل، وتجميع كافة أحداث الحياة، ولذا اختار منها، هنا فى مذكراته، ما يعطى مؤشرًا يسمح بفهم الشخصية ومسارها الطويل فى كافة الاتجاهات.

كما يكتب الفقى ذاكرًا أنه اختبر فى حياته تقلبات الزمن جميعها: رأى بطء الزمن عندما انتظره، واختبر سرعته حينما لم يحفل به، ووجده طويلًا حين اعتراه الألم، مستهلًا كتابته عن سنوات نشأته من القرية للجامعة بمقولة لجبران خليل جبران: فى قلب كل شتاء ربيع يختلج، ووراء نقاب كل ليل فجر يبتسم.

خلاصة التجارب

هنا يكتب الفقى عن جدته لأمه ياسمين التى أنجبت أحد عشر مولودًا، وعن أمه عزيزة التى فارقت الحياة بعد أن أصبح جدًا للمرة الأولى، وعن ابنته الكبرى سلمى ومولودها الأول سليم، وعن والده الذى رحل فى العام ٢٠٠٠، ويذكر عبارة مهمة لأبيه أثرت فى حياته قال له فيها: إذا زهزهت خاف منها، وتعنى أن نحذر من الدنيا إذا ابتسمت لنا.

الفقى قهر جميع نقاط الضعف فى حياته وحولها إلى نقاط قوة نتيجة لقصيدة قرأها للشاعر التونسى أبى القاسم الشابى التى يقول فى بدايتها: سأعيش رغم الداء والأعداء / كالنسر فوق القمة الشماء.

الفقى الذى يتحدث هنا عن دخوله كلية الاقتصاد والعلوم السياسية يعتقد أن دارس القانون الذى يمتلك ناصية اللغة الفرنسية لديه فرصة أن يصبح من أشهر المحامين، ليس فقط فى ساحة محاكم الجنايات أو القضاء المدني، لكن أيضًا فى إطار الشركات والمؤسسات الاقتصادية الكبرى.

الفقى الذى يعتبر السادات، من حيث الحنكة السياسية والدهاء الشخصي، رجل الدولة الثانى بعد محمد علي، يرى أن السادات أحدث تحولات كبيرة فى السياستين الداخلية والخارجية لمصر.

كذلك يكتب الفقى عن ذهابه إلى لندن وعمله بها، عن بقائه لثمانية أعوام فى العمل مع مبارك، عن ميلاده الجديد بعد خروجه من قصر الرئاسة، عن لقاءاته برموز السلطة فى العالم العربي، وعن صحبته مع نجوم الفكر والأدب والفن، عن أيام النمسا ولياليها، وعن قبة البرلمان وحكايات مجلس الشعب، عن تجربته مع جامعة الدول العربية، عن ثورتي ٢٥ يناير و٣٠ يونيو، وعن حكايته مع مكتبة الإسكندرية.

فى مذكراته هذه حرص الفقى ألا تخلو من خلاصة تجاربه وفلسفته فى الحياة، معلنًا أنه لم ينكمش يومًا ولم يتقوقع أبدًا إلا لعذر قاهر أو طارىء صحي، ودائمًا ما كان يشعر بالنقص لأنه لم ينتم إلى المدرسة الفرانكفونية بفلسفتها وأدبها ومفرداتها المستمدة من اللاتينية.

هنا أيضًا ترفّع الفقى عن آثار أى خصومة عابرة، ولم يستخدم تعبيرًا يسيء لأحد، عازفًا تمامًا عن لغة التجريح، لأنه لا يهدف إلى الإساءة إلى أحد، بل يرغب فى إيضاح الحقائق وإجلاء الأحداث فى تجرد وموضوعية وحياد، حارصًا أن تكون مذكراته مرتبطة بالتحليل السياسى الذى وقع فى هواه منذ الصغر، بحيث تصبح مفيدة لجيل من الباحثين فى فترات زمنية من تاريخنا الحديث.

المفتاح السحرى

الفقى الذى اكتشف، من خلال أسفاره التى قام بها والبشر الذين عايشهم والأشخاص الذين صادقهم، أن المودة والمحبة يمثلان المفتاح السحرى لقلوب الناس فى كل زمان ومكان، وأن الكراهية والبغضاء يمثلان عبئًا ثقيلًا على النفس البشرية يرجع بها إلى الوراء ويدمر فيها أسمى ما يملك الإنسان، يؤكد هنا كذلك أنه خالط الكبار وتعلم منهم دروس الحياة وفهم مفاتيح النفس البشرية، مما مكّنه من أن يظل لسنوات يكتب أسبوعيًا عن شخصيات عرفها على المستويات الدولية والإقليمية والمحلية تجاوز عددها الثلاثمائة شخصية.

ومتعجبًا من سخرية بعضهم من الشعب الهندي، يتمنى لو أننا كنا هنودًا، قائلًا إنه تعلم فى الهند ما يعادل أربعين عامًا من عمره، ذاكرًا أن الهند أمة كبيرة، وشعب عريق، وحضارة متميزة، وديانات وثقافات، بل وقوميات متعددة، وقد بهره صبر الهنود وفلسفتهم العميقة وقدرتهم على امتصاص الألم ونسيان الأحزان، فضلًا عن الواقعية الشديدة والقدرة الفائقة على تحصيل المعرفة والانخراط فى العلم. نهاية أحيى الكاتب على أنه استهل كل فصل من فصول كتابه هذا بمقولة لأحد المشاهير فى شتى المجالات مثل هيلين كلير، مكرم عبيد، إبراهيم ناجي، الملك جورج السادس، أرسطو، شكسبير، عباس محمود العقاد، المهاتما غاندي، على بن أبى طالب، والقديس أغسطينوس ناقلًا عنه قوله: لا تسكب الدموع الطازجة على الأحزان الماضية.